

مجلة لاهوت

بين المرعي والحيايم - الادب وخلوده -
المدينة والتجارة المصرية

بين المرعي والحيايم

نشرنا سابقاً في المشرق [٣٦] [١٩٣٨] [٤٤١-٤٥٠] مقابلة بين المرعي والحيايم قارناً فيها بين آراء الشاعرين في فكرة الموت وما وراءه من مصير الارواح ومآل الاجسام. ثم أننا في الصيف الماضي، بنانا احد كبار الحياتيين في الشرق، الاديب الراقى المعروف، الاستاذ احمد حامد الصراف، فأكبرنا جهوده المتواصلة في درس الحيايم، واطلعه الواسع على آثاره، وتنقيبه عما ثبت له من الرباعيات وما اضيف اليه، واخذ في الابحاث باحثة من المناقبة والموازنة تكفل الدروس الاديبة الخفة. وقد اطلنا له مؤخراً، في مجلة المجمع العلمي العربي (الجزء ٩ من السنة ١٩٣٠) على «مقارنة بين المرعي والحيايم» قابل فيها بين اخلاق الشاعرين، ومحيطها، ومستنداتها المختلفة، قانت بعض اقسامها خير تسمية لدرسنا السابق، اذ حصرنا كلاهما عن فكرة الموت وما بعده عند الشاعرين المذكورين، وما انا نورد ما قاله الاستاذ في اتفان اخلاق مفكرينا ومحيطها:

ان من غريب الاتفاق ان يكون الحكيمان متماثلين في الاخلاق فكلاهما كان متعبض النفس ضيق الصدر متزويماً عن الناس زاهداً فيما بأيديهم ماقتاً لهم مستهزئاً بهم مستخفاً بعقائدهم ومبادئهم وكلاهما مبغض للدنيا متطال لامر غامضة أجل شأنها واعظم قدراً من حطامها وكلاهما متطلع تائق الى اسرار الحياة، معنى بها، وكلاهما ابى النفس صادق القول مطلق الرأي جري على البوح يذهب، الا فترات كانا كلاهما يراعي فيها خواطر الناس خشية الاذى والضرر. وكلاهما فقير لم يملك شيئاً من حطام الدنيا، ولو اراد ان يفرأ وذهباً وفضة، وكلاهما عاش عزباً لم يتزوج وكلاهما نشأ في عصر حافل بالعلوم والمعارف فأنض

بالآراء التلقفية ، اذ في عصرهما ظهر مذهب الاسماعيلية والباطنية وفي عصرهما اجتمع اخوان الصفا خفية وبرزوا رسائلهم الشهيرة . واتوال الفيلسوفين على تقارب في العلوم والمعارف . اما تأليفهما قليلة ايضاً واما السياسة في زمانها فتشابه فقد كانت نار الفتنة مشتملة في سورية في عصر المرعي . واما فارس فقد كانت دحى الحرب فيها دائرة كل المدة التي عاش فيها الحيام فانه نشأ في اكناف الدولة السلجوقية التركية التي قامت مقام الدولة النزوية ولم تقم تلك الدولة الا بالسيف وكان الحيام يشهد ذلك وقد اتسع سلطان هذه الحكومة في ايام ملكه (١٦٥-١٨٥) الذي كان يحل عمر الحيام اجلاً عظيماً حتى عهد اليه بناء الرصد وترتيب الزيج . وفي عهده اسس زميله وشريكه في الدرس «حسن الصباح» مذهب الباطنية وفي ايامه ارتكب الباطنية المنكرات والموبقات وفيها قتل زميله وشريكه الآخر «نظام الملك» بطعنة باطني .

ثم يشير الكاتب الى ان كلاً من الشاعرين «أخيه بضم الايمان» والمروق بن الشربة ، رؤس بالتبوير الذي كان ثانياً في ذلك العصر وهو الزندقة ، ذلك الجرم الذي ما ألصق باحد الا كان جزاؤه الموت . « وهذه النهاية نتيجة لازمة لماضية الشيخين في افكارهم الشكوكية المائلة حول الايمان بالبت وانكاره . وبرى الاستاذ «ان كلا الحكيمين كان منكراً للبت غير معتقد بمشّر الاجسام وخلود الارواح » واما الايات التي نظمها الشيخان في اثبات البت فقد نظماها تقيّة وخوفاً من الناس وسخط الجمهور عليها . « قلنا : ولعل تلك الحالة النسبة التي كانت تدفع الشيخين الى نظم الايات في الايمان والتي نسبها الاستاذ الى التقيّة ومداراة الجمهور ، قد تكون نتيجة الشك المستحکم في شخصية الحكيمين ، ولا يخفى ان الشك ليس بالحالة الدافعة الى الاطّئنان ، بل هو لا يزال يدفع صاحبه من تردد الى تردد ، ويختل به من حيرة الى حيرة ، ويحوك حوله من كائنات ظلام التشاؤم - وهي حالة الشيخين كما يتّنه الاستاذ - حتى يقضي به الى قلق - ولم يتحمله على الشك في ايمان ماصريه شكاً فحلاً لا يلبث ان ينقله ، اذا ما تأثر بوامل جديدة ، الى شك جديد في شكّه ذلك ، فيرجع الى ابائه السابق او الى ما جاوره ، فيسكن هنيهة بيود بعدها الى نقطه الاولى . . . وهكذا دواليك . . . ولعل ما نراه من مظاهر الايمان في آيات الشيخين وليد هذه اللحاح السرية من نور الانتقاد في ظلام الشك .

هذا وبعد ان يتكلم الاستاذ عن تأثير التشاؤم في آراء الشيخين يستنتج « ان كلا الحكيمين انتقنا على ان املابة خطب وبلاء ، فقد انحدا وانفقا على تشخيص الداء الا انها اختلفا في الدواء . فيينا لان الحيام يرى دواءه الوحيد في العمرة ، كان المرعي ياتسه في الموت :

كان عمر الحيام يرى ان الوسيلة الوحيدة الى النجاة من آلام الحياة السلاقة . وكان المعري يرى ان المنية هي الوسيلة الى ذلك . وقد وصف الحيام الخمر بما وصف به ابو العلاء الموت . وفي طائفتنا ان ندعي ان نفس المعاني التي ذكرها المعري في الموت جعلها الحيام في الخمر . فقد ذهب في المغلاة بعدها ، والاسراف في حبا ، والولوع بها ، وحث الناس على شربها ، ما جعل بعض الباحثين ان يُسئروا به الظنون ويبتدروا اقواله ضرباً من الجنون وتوعة من السفه . وقد ذهب الحيام في الخمرة مذهب اكثر الشعراء والحكماء الذين كانوا يرون ان فيها راحة للنفس وتسكيناً للاوجاع وتمحيصاً للآلام والاكدار .

وتدل رباعياته على انه لم يشرب لمجرد اللهو والبث . وانما اتخذها دواء كما يتخذ المريض الدواء لمرضه . وانه كان يرى ان السلاقة هي الوسيلة الوحيدة الى تبديد الهوس وتفريج الكرب عن الصدر فمن ذلك قوله ما معناه :
« ليس شرب الخمرة من اجل الطرب والفساد وترك الدين والأدب . انما أريد ان اذنس الصدا . وانما ذامل عن نفسي شرابي الخمرة وكسري لهذا السب . »
« بين مجي الربيع وذهابه تطوى اوراق وجودنا . اشرب الخمرة ولا تنألم فقد قال الحكميم ان آلام المياة سم ودرباقها المر . »

وقد ظن بعض الباحثين ان السلاقة التي يتفنى بها الحيام في رباعياته هي « سلاقة الحب » او « خمرة الحقيقة » او « السكر المقدس » وهي الخمرة الخيالية التي ينشدما شعراء الصوفية في قصائدهم مثل ابن الفارض وجلال الدين الرومي وغيرهم ، وفي الحقيقة ان هذا الظن باطل غير صحيح . فان عمر الحيام لم يتغزل بخمرة وهمية وانما تغزل بالمشعة الحمراء بنت الكروم لابادة الالم الرابض في صدره والرباعيتان اللتان تقدم ذكرهما كافيان في دحض هذا الزعم .
اما شيخ المعرة فقد خالف صاحبه في هذا المنى واكثر من ذم الخمرة وقبحها وندد بشاربها وزعم انها سائلة العقول هاتكة الوقار مفرقة الاحباب ، وقد اجيز على السلاقة في لزومياته فمن ذلك قوله :

وحاذر من الصياء ، في عدوة من الصب مشت في مقامك السكرا

البابية باب كل لينة ، فترقين هجوم ذاك الباب ا

جررت ملاحاة الصدين ومجره ' واذى الندم ، ورقة الاحباب ،
 ام الحجاب ، وان أمت لبيها بزاجها ، وافت كام حجاب ،
 متكت حجاب المحضات ، وجشت من العيد تحتم الارباب ؛
 وتوقم الشيب المدالف انتم لبوا ، على كبر ، برود شباب ؛
 واذا تأملت الموادث ألقبت صبب الدنان اعادي الالباب .

قلنا غير مرة ان الحيام والمعري كانا يريان الحياة خطباً وشرّاً يجب التخلص
 منها اما الحيام فقد رأى ان احسن وسيلة تنجيه منها هي «الحسرة» واما المعري
 فقد ذمها وكان يرى ان الموت هو الدواء الشافي ، وكان يتطلب الفرج على يد
 الميتة وقد تمناها في كثير من شعره فنقول :

اما حيناتي فاني عندهما فرج فليت شعري عن موقى اذا قدما!
 صحت عيلاً أعانيه ويتليني مثل الوليد يفود المصعب الدما
 وقد ملكت زماناً شره لمب اذا دنا لجبراً عاد قاحتدما ،
 من باعني بيماني ميتة سرحا بايته : راما ان الله من ندما !

ربّ متى ارحل عن هذه الـ دنيا ، فاني قد اطلت المقام ،
 لم ادر ما نجسي ، راسكنه في النجس مذ كان جرى واستقام
 فلا صديقي يترجى بيدي ولا عدوي يتخشى انتقام ،
 والبش سقم الفتى منصب ، والموت يأتي بثناء النمام .
 والترب مشواي وشواهم وما رأينا احداً منه قام .
 ثم يختم بمقابلة في مصير الاجسام بعد الموت على نحو ما ذكرناه في مقالنا السابق .

الادب وعلووه

قابل احد كتاب الانكليز شاعر الهند الأشهر ، رابندرناث طاغور ، فعادته عن «الادب
 والحياة» حديثاً نقله الكاتب الى مجلة «المنتطف» وفيه آراء في خلود الادب وبعض عوامل
 الشهرة الاديبة لا تخلو من فائدة ، منها قوله (جزءه تشرين الثاني ، ص ٣٧٧) :

قال : كيف نستطيع ان نحكم على بيان عصرنا لمعرفة الآثار التي تنعم
 بنعمة الخلود ؟ ان بيان كل عصر هو نتيجة عوامل واحوال مهدت له السبيل
 في عصور سابقة ، وهو بدوره يمد السبيل لبيان جديد في عصر تالي . فلا بد لنا
 من موضوع للنظر المشارف لنستطيع الحكم على الانسان وأسلوبه في الافصح
 عن نفسيته . والمسافة في الزمان والمكان لا مندوحة عنها لهذا الحكم لان

القرب يجير البصر لكثرة ما زاه من الدقائق فيمتنع علينا النظر الشامل
وتتمدر رؤية الكل كلاً لا اجزاء من كل .

سألني كثيرون عن احب الشعراء اليّ واي رجل اعظم الرجال في نظري .
اننا لا نستطيع ان نحصر التفوق في شخص واحد لكثرة المتفوقين . تلقيت
علمي في العصر التيكوردي فانا اعيد لته وافهم ادبه ولكنني لا استطيع
ان افهم تعبيرات الادباء المحدثين . قد تكون هذه التعبيرات غاية في الابداع
وقد تنطوي على صفات تضمن لها الخلود كالصفات التي تمتاز بها اشعار شلي
وكيتس^١ ولكنني لا افهمها .

ان لغة كل امة كالامة ذاتها . فاما ان تتقدم واما ان تموت . انها لا تستطيع
ان تجمد في مكانها . فالانكليز لا يتكلمون بلغة تشوسر^٢ الآن . ولو اتيح
لتشوسر ان يطلع على السلوب الكتابة في العصر الايباباتي — عصر شكبير
وفرنيش باكون — لحبه وطاعة محدثة . هكذا ينظر ادباء العصر التيكوردي
الى اساليب الادب الحديثة .

وفي لغة كل شعب تتردد اصداء الزمان ! لقد انقضى عهد التجوال الشعري
في الريف والطمأنينة في البعد عن المدن . ونحن الآن في غمار عهد لطنين
السدان واصطحاب الآلات اعظم شأن . فالنغمات المتسقة الغنائية التي كنا
نتشدها في امنا العابر قد انقضت عهدا وحلت محلها المبارات المتضبة والشعر
المطلق في يومنا هذا القلق المضطرب . وليس هذا بالامر الذي يوسف له . فكل
فترة يركز فيها الانتاج العقلي والفني تعقبها فترة راحة تخلد فيها النفس الى
الكينة تستجمع قواها فاذا بدأت فترة الانتاج التالية اتصلت اساليبها بالعنف
وبالرجوع الى السذاجة مسرحية دوافع البشر الاولى في الخلق والابداع .

كلما تقدسنا في السن قويت بصيرتنا الروحية فنستطيع ان ننظر الى الاشياء
نظراً مشارفاً نفهم علوها . فيحملنا ذلك على تفضيل ايام حداتنا الزاهية على

١ شلي وكيتس شاعران انكليزيان من اكبر شعراء القرن التاسع عشر

٢ شاعر انكليزي من القرن الرابع عشر

ايام كهولتنا او شيخوختنا التي نطاني اعباءها فنشير الى ايام الشباب متحسرين :
كان زمن الشباب كذا وكذا . والواقع ان الحال لم تس . والايام الماضية لا
تفضل الايام الحاضرة حكمة وسعادة وانما بعدنا عنها يمكننا رؤية اثرها رؤية
مجملة شاملة . وهذا ما لا نستطيع ان نفضله في ايماننا هذه لاننا ما ذلنا فيها .
ان رسم الحائلك لا يروى الا متى تمت حياكة الثوب .

ويطلب ان تكون الشهرة نتيجة الفرصة السانحة وكثيراً ما تشبها
في مداها ا
ف . ا . ب .

المدينة والتجارة المصرية

اهدت الينا مصلحة التجارة والصناعة «صحيفتها» وهي عبارة عن نشرة شهرية ضخمة ،
قطعا كبير ، وعدد صفحاتها ١٢٠ . دخلت في سنتها السادسة ، وفيها المواضيع الواسعة الشاملة
التجارة والصناعة والاقتصاد مع تقارير تفصيلات الملكة المصرية وغير ذلك من النوائد
والروائع . واليك نبذة من مقال على التجارة المصرية في المدينة (يوليو ١٩٣٠ ، وجه ٦٧)
والفقال مقتطف من تقرير قنصل مصر في جدة بعد زيارته المدينة يرسي فيه صاحبه الى دعوة
مواطنيه الى انشاء معرض مصري في الحجاز لنشر المصنوعات التجارية فيها ، ولترغيب الحجاج
بالترويج على مصر في عودتهم . ولبست الفكرة بنيدة التحقيق لان البلاد المتأثرة تنارت
بوسائل النقل المصرية :

بيننا ان المدينة المنورة تعتمد في تجارتها و وارداتها على ما يأتي اليها من
الخارج كما يتنا ان ليس بها صناعات مطلقاً وأن ما بها من الزراعة لا يكفي
الا للاستهلاك المحلي ولا يمكن للمدينة الاعتماد على محصول زراعة القمح ولذا
ترأها في حاجة دائمة الى القمح لاستهلاكه وتصديره الى نجد . كما ان العنيس
والشعير المصري يمكن ان يروجا كثيراً في المدينة لو خفضت أسعارهما في مبدأ
الامر والبطاطس يعتبر ما كؤل الطبقة الراقية ولكن أثمانه مرتفعة جداً اذ تباع
الاقعة باكثر من ستة قروش صاغ مصرية ولا يوجد في اغلب الاحيان الا عند
بعض التجار فلو ان التجار المصريين عنوا بتوريد البطاطس بأثمان معقولة لامكن
كسب السوق وتوزيع كميات كبيرة من هذا المحصول لانه من المحقق أنه اذا
رخصت الاسعار أقبل الاهلون على شرائه لما فيه من المادة المفيدة .

الصايون - يكثر استعماله في المدينة خصوصاً في زمن الصيف وهو شائع
بين جميع الطبقات والصايون المصري نافق السوق ولقد سمعت من الكثير الثناء

عليه وبخاصة المصنوع منه في فاوريقة احد الرطيين بالاسكندرية . ويسرني ان اعلن ان الصايون المصري امكنه في المدينة بفضل اتقان صنع الفاوريقة المشار اليها ان يزاحم انواع الصايون الاجنبي .

السجاير المصرية - تروج في المدينة كثيراً ويقبل الاصالي على شراء الرخيص منها ومن المحقق كسب السوق للسجاير المصرية لان السكان يدخنون اغلبهم ويستهلك مقداراً عظيماً منه اما التثناك فعليه إقبال كبير .

الغاز والبتن - مقطوعتيهما كبيرة في المدينة وهي التي تقوم بتوريدهما الى داخل نجد وفي بعض الاحيان ينذر البتن في المدينة الى حد انه تطلب الصفيحة منه باي ثمن وقد رأيتها تباع بـ ٨٠ قرشاً مصرياً على ان يكون المشتري معروفاً وموصى عليه عند التاجر وهذا يرجع الى ندرة العروض .

وفي مسود المصريين ان يحملوا المدينة مركزاً لتوزيع البتن خصوصاً في زمن الحج فوجود مستودع للبتن فيها وتحديد اثمان معتدلة له يجعل الاقبال عليه شديداً ويزيد في مقطوعيته .

الروائح العطرية - للروائح العطرية اهمية كبيرة في المدينة ولاسيما في زمن الحج فالتطيب من السن ولكن اغلبها يأتي من الخارج ويفضل التجار المصنوع منها بحمر .

المنسوجات القطنية والصوفية والكثانية والحربية - لا غنى للأهالي عنها ومعظمها يأتي من سورية ومن الثابت أن مصر تستطيع المزاحمة في هذا الميدان على شرط ان يكون الثمن معتدلاً الى حد يوجب الى المستهلك الشراء . ومنسوجات القطنية والمنسوجات بانواعها كبيرة جداً اذا اعتبرنا ان المدينة هي سوق نجد في اغلب الاحيان ومعظم العربان يلبسون البقعة السراة وناوهم يلبسون الجلابيب السوداء والملاءات السوداء والزرقاء القاتمة .

الحلويات - لما مقطوعية كبيرة بالمدينة وهي تأتي من مصر . وجملة القول ان في استطاعة التاجر والصانع المصريين ان يكسبوا سوق المدينة واسواق الحجاز الاخرى اكثر من غيرهما . والتاجر يستطيع ان يرسل بضاعته من ينبع الى المدينة على السيارات في ٦ ساعات .